الشعر في عصر الخلفاء الراشدين

امتداد و عمق

أ. د. أحمد محمد عوين

لعله لا يخفى على أحد ما كان من أمر التأثير الكبير الذي ترتب على ظهور الإسلام؛ سواء أكان ذلك في الحياة الاجتماعية، أم الدينية، أم الأدبية، وقد كان الشعر العربي من أهم ما تأثر بالدين الجديد؛ بقيمه الأخلاقية والنفسية والإنسانية الجديدة والمجددة، كما تأثر في لغته بلغة القرآن الكريم، وأساليبه وتراكيبه التي اعتاد المجتمع بعضها، ولم يكن يعهد بعضها الآخر في الجاهلية.

أما في عهد الخلفاء الراشدين، فقد وجدنا الشعراء يتفاعلون مع هذا العصر كما تفاعلوا مع عصر النبي "ص"، وإن لم يختلف أمر الشعر والشعراء كثيرا عما سلف، خصوصا من الناحية الفنية، فعصر الخلفاء يعد امتدادًا طبيعيًا لعصر النبي "ص" من حيث لغة الشعر وموضوعاته إلا ما استجد من قضايا خاصة بهذا العصر، أو ما زال منها، أو زالت أسبابه.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن القيم الإسلامية الجديدة، ومعاني الدين الحنيف، لم تكن تشربتها نفوس العرب معظمهم، وبعضهم من الشعراء، في ذلك العصر. تشربا تامًا، ولذا بدت على صفحة الحياة. آنذاك. بعض كوامن النفوس الموروثة من الجاهلية؛ من ذلك العصبية القبلية، وعدم الالتزام الكامل بسلطة الدولة الإسلامية الموحدة، وكان من أهم مظاهر ذلك ما يعرف بحروب الردة في عصر أبي بكر الصديق.

وكما كان شعراء المسلمين المستمسكين بمبادئ وحدة الدين الجديد يدافعون عن مبادئهم ومعتقداتهم، كان شعراء المرتدين يمثلون لسان حال المعارضة وقتها؛ ويبدو ذلك في شعر الحطيئة ـ جرول بن أوس ـ (٤٥ هـ ـ ٦٦٥ م) وقد رفض انتقال السلطة الدينية والسياسية إلى خليفة رسول الله "ص" فراح يعترض بقوله:

فِدًى لبني ذُبْيانَ أُمّي وخالتي
عَشِـيَّةَ يُحْـدَى بالرِّماحِ أبو بكرِ
أَبَوا غيرَ ضَرْبٍ يَحْطِمُ الهامَ وَسْطَه
وطعـنٍ كأفواهِ المُزَقَّمَةِ الحُمُـرِ
فقُوموا ولا تُعطوا اللئامَ مقادةً
وقوموا وإنْ كان القيامُ على الجمْرِ
أطعْنا رسولَ الله إذ كان صادقا
فيا عجبـا ما بـالُ دينِ أبي بكـرِ
أيُورِثُنا بكرًا إذا مات بعدَه
فتلك وبيت الله قاسمةُ الظَّهْرِ(١)

ولم يقف به الأمر عند هذا، بل قال عندما اصطلحت عبس وذبيان في الردة:

ألمْ ترَ أنَّ ذُبيانًا وعَبْسًا
لباغي الحربِ قد نزلا براحا
يُقالُ الأجربانِ ونحنُ حَيٌّ
بنُو عَمٍّ تَجَمَّعْنا صِلاحا
مَنعْنا مَدْفَعَ النَّلَبُوتِ حتَّى
تركنا راكزين به الرِّماحا
نُقاتلُ عن قُرَى غَطَفانَ لمّا
خَشينا أنْ تَذِلَّ وأنْ تُباحا(٢)

وهذا يبرز ما اعتاد عليه "الحطيئة" في سلوكه؛ "وقد تعود دائما أن يخضع للقوة، فسكت حين قوي أمر النبي "ص" ودخل فيما دخل فيه الناس، فلما مات النبي وارتدت االعرب جهر بكفره، وراح يحرض الناس على الامتناع عن الزكاة، ويذم هذه القبائل التي ذلت بإعطائها من عبس وطيء ودودان، ويدعو الناس للخروج على أبي بكر." (٣)

ولم يكن ذلك بغريب على شاعر مثل الحطيئة؛ وقد أشار ابن قتيبة إلى أنه كان "رقيق الإسلام، لئيم الطبع، ومن المشهور عنه أنه قيل له حين حضرته الوفاة: أوصِ يا أبا مُلَيكَةَ، فقال: مالي للذكور من ولدي دون الإناث، فقالوا: إن الله لم يأمر بهذا، فقال: لكني آمر به، ثم قال: ويل للشعر من الرواة السوء، وقيل له: أوصِ للمساكين بشيء، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا، فإنها تجارة لا تبور، وقيل له: أعتق عبدك يسارا، فقال: اشهدوا أنه عبد ما بقي". (٤)

وقد حاول بعض الدارسين التأصيل لهذه الظاهرة الفنية عند "الحطيئة"

فراحوا يفسرونها تفسيرا نفسيًّا واجتماعيًّا، من هؤلاء د. محمد محمد حسين حيث فسَّر شيوع الهجاء في شعر "الحطيئة" لأسباب ذكرها في قوله:

"فالحطيئة قد خرج إلى الدنيا يحمل أوزارا، لا يد له فيها، وقذف به إلى الحياة ملعونا من الناس، لا يجد عندهم حنانا، ولا يلقى منهم إحسانا، وجه قبيح، وجسم رث قميء ونسب مغمور، ينتسب لذهل، مطالبا بميراثه من الأفقم فيرده مذموما مدحورا، فإذا انقلب إلى بني عبس وطالب بميراثه من أوس، لم يكن نصيبه إلا السخرية والاستهزاء، فأي شيء ينتظر من رجل هذا شأنه إلا أن يكون كارها للدنيا، ناقما عن كل من فيها."(٥)

ومع ذلك يعد كل من الحطيئة وكعب بن زهير من فحول الشعراء المخضرمين، ويرى كثير من الدارسين أن هذين الشاعرين من أرفع الشعراء المخضرمين مستوى؛ ومن الثابت أن محمد بن سلام الجمحي قد وضعهما ضمن الطبقة الثانية لفحول شعراء الجاهلية مع أوس ابن حجر وبشر بن أبي خازم. (٦)

وعلى هذا النحو استمر الحطيئة متابعا مسالك الجاهليين، الذين يعد واحدا منهم في تركيبته الفنية؛ فنجده يكثر من مدحه وهجائه وتكسبه من وراء شعره، معتمدا على بعض الخصومات القبلية التي لم تكن قد انتهت وقت ذاك، "وبذلك لم يتأثر تأثرا يذكر بروح الإسلام، أو أسلوب القرآن، أو لغة العصر، التي كانت بدأت تجري على ألسنة الشعراء والخطباء." (٧)

ويمكن أن نستثني من ذلك بعض الأبيات التي قالها الحطيئة لعمر بن الخطاب، أو الأبيات التي مدح بها كعب بن زهير الرسول الكريم ضمن قصيدته المعروفة "بانت سعاد" أو "البردة". (٨)

ومن الأبيات المشار إليها من قول "الحطيئة" يمدح بها "عمر بن الخطاب" ويستعطفه فيها قوله:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرخ
زُغبُ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجَرُ
غَيَّبْتَ كاسبَهم في قعرِ مُظلمةٍ
فاغْفِرْ عليكَ سلامُ اللهِ يا عمرُ
أنت الأمينُ الذي من بعد صاحبِه
ألقَتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ (٩)

ومن الثابت أن عمر عفا عنه بعد استماعه هذه الأبيات، ثم قال له: إياك وهجاء الناس"قال إذن يموت عيالي جوعا، هذا مكسبي، ومنهم عيشي" ويقال إن عمر اشترى منه أعراض الناس.

ومع ذلك فقد راح الحطيئة يعلن عن ضيقه من هذا الحكم الصارم، الذي منعه هجاء الناس، فيسخر فيها من نظام بيت المال، فيخاطب عمر بالملك "لأنه لا يرى النبوة الخلافة إلا ملكا، ولا يفهم من الدين إلا أنه وسيلة للسيطرة والسلطان" فيقول:

يا أيها الملكُ الذي أمستْ له
بُصْرَى وغزَّةُ سهلُها والأجرَعُ
ومليكُها وقسيمُها عن عمرِه
يعطي بأمرِك ما تشاءُ ويمنعُ
فبُعثتَ للشعراء مبعثَ داحسٍ
أو كالبسوسِ عقالَها تتكَوَّعُ
ومنعْتَني شتْمَ البخيلِ فلم يَخَفْ
شتْمي وأصبحَ آمنًا لا يفزَعُ
وبُعِثْتَ للدُّنْيا تُجَمِّعُ مالَها
وتَصُرُّ جزيتَها ودأبا تجمعُ(١٠)

ويعد "سليم بن عبد العزيز بن عبيد السلمي - أبو شجرة" من الشعراء المرتدين أيام أبي بكر، وكان قد أسلم مع أمه "الخنساء"، وفي أثناء ارتداده قاتل المسلمين، وكان من فتاك العرب، واشتهر عنه في زمن الردة قوله:

ألا أيُّها المُدلي بكثرةِ قومه
وحُظُّك منهم أنْ تذلَّ وتُقْهَرا
سَلِ النّاسَ عنّا كُلَّ يومٍ كريهةٍ
إذا ما التقَينا دارعينَ وحُسَّرا
فرويتُ رمحي من كتيبةِ خالدٍ
وإنّي لأرجو بعدَها أنْ أُعَمَّرا(١١)

ولكنه أسلم بعد ذلك مرة أخرى ورجع عن ردته، "وقدم على عمر، فقال له: أنا أبو شجرة السلمي فأعطني. فقال: ألست القائل: فرويت رمحي. ثم علاه بالدرة، فسبقه عدوا، وركب راحلته فنجا وهو يقول:

قد ضَنَّ عنّا أبو حفصٍ بنائلِه
وكُلُّ مُختَبِطٍ يومًا له وَرَقُ
ما زال يضربُني حتى جذَيتُ له
وحالَ من دونِ بعضِ الرَّغْيَةِ الشَّفَقُ(١٢)

ومن ثم وُجِد كثير من الشعراء - في ذلك العصر - ينظمون في المعاني الجاهلية، أو ما تدفعهم إليها مشاعرهم الخاصة، مغفلين - في كثير من الأحيان - الاعتبارات الدينية؛ "فقد كان عبد الله بن أبي بكر (١١ ه - ٦٣٢ م) شاعرا مشبوب العاطفة، وله في زوجته عاتكة بنت زيد (٤٠ ه - ٦٦٠ م) أشعار كثيرة، وكانت فائقة الجمال حتى شغلته عن المغازي، فأمره أبوه بطلاقها، فاستجاب له، ولكنه ظل يتغنى بحنينه إليها.

ويروى أنه عندما أمره أبوه بطلاقها قال:

يقولونَ طَلِّقْها وخَيِّمْ مكانَها
مُقيمًا تُمَنّي النَّفْسَ أحلامَ نائمِ

وإنَّ فراقي أهلَ بيت جمعتُهم
على كثرةٍ منّي لإحدَى العظائم

وعندما عزم عليه أبو بكر أن يطلقها، سمعه يقول:

ولمْ أرَ مثلي طلَّقَ اليومَ مثلَها
ولا مثلها من غير جُرْم تُطَلَّقُ

ولما سمع منه ذلك رقَّ له، وأذن له فارتجعها، ثم لما كان حصار الطائف أصيب بسهم فمات، فرثته "عاتكة" بأبيات منها:

فآليتُ لا تنفكُّ عيني حزينةً
عليك ولا ينفكُّ جلديَ أغبرا(١٣)

وبينما نجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٣ ه ـ ٦٤٤ م) ينهى حسان بن ثابت عن إنشاده هجاء الكفار، لزوال دواعيه، نرى النجاشي؛ قيس بن عمرو (٤٠ ه ـ ٦٦٠ م) يقذع في هجاء بني العجلان، والحطيئة يعنف في هجائه للزبرقان بن بدر، وبينما نجده يعزل أحد ولاته لذكره الخمر في شعره، يجهر أبو محجن الثقفي؛ عمرو بن حبيب (٣٠ ه ـ ٦٥٠ م(في شعره بتهالكه على الشراب، ويشبب سحيم عبد بني الحسحاس (٤٠ ه ـ ٦٦٠ م) بالنساء تشبيبا فاحشا، وكذلك الشأن بالنسبة لضابئ بن الحارث البرجمي (٣٠ ه ـ ٦٥٠ م) الذي رمى أم قوم بكلبهم في هجاء فاحش، وحاول اغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه".(١٤)

أما أبو محجن الثقفي فقد شغفه شرب الخمر، في الجاهلية والإسلام، ولم يتركها منذ أسلم في السنة التاسعة للهجرة حتى معركة القادسية، وقد نقم عليه عمر بن الخطاب شربه الخمر، فنفاه إلى "حَضَوضَى" وهي جزيرة في البحر، وبعث معه ابن جهراء، فراغ منه على شاطئ البحر، ولحق بسعد بن أبي وقاص." (١٥)

وعلى أثر ذلك قال:

الحمدُ لله نجّاني وخلّصَني
منَ ابن جهراءَ والبوصيّ قد حبسا
مَن يركب البحرَ والبوصيَّ معترضا
إلى حَضَوضَى فبئسَ المركَبُ التمسا
أبلغْ لديك أبا حَفْص مغلغلةً
عبدَ الإلهِ إذا ما غارَ أو جَلَسَا
إنّي أكرُّ على الأُولى إذا فزعوا
يوما وأحبسُ تحتَ الراية الفَرَسا
أغشَى الصِّياحَ وتغشاني مُضاعَفةٌ
منَ الحديدِ إذا ما بعضُهم خَنَسا(١٦)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشعراء في عصر الخلفاء لم يكونوا ـ على هذه الشاكلة ـ جلهم كما كان الحطيئة وأقرانه، بل وجدنا كثيرا من الشعراء يستجيبون إلى ما أمر به الله ـ تعالى ـ في تعاليم دينه الحنيف، حتى إن بعضهم أعلن أنه هجر الخمر والأصحاب وكفَّ عن قول الشعر، واكتفى بتلاوة القرآن الكريم، كما يبدو في قول بشار بن عدي الطائي:

تركتُ الشعرَ واستبدلتُ منه
كتابَ الله ليس له شريكُ
وودَّعْتُ المُدامةَ والنَّدامَى
إذا داعى منادي الصبح ديكُ(١٧)

ونجد حُصَين بن الحُمام المُرِّيّ بعد إسلامه يتبرأ من جاهليته السابقة ويعلن توبته، وتطهيره من مآثمه السالفة بخوض الحروب في سبيل نصرة الدين القيم، حيث لا يبقى إلا التقى، راجيا من الله ـ عز وجل ـ أن يحميه من المخزيات يوم القيامة، فيقول متناصًّا مع القرآن الكريم:

ويومَ تُسَعَّرُ فيه الحروبُ
لبستُ إلى الرَّوعِ سربالَها
فلم يبقَ من ذاك إلا التُّقَى
ونفسٌ تعالجُ آمالَها
أمورٌ من الله فوقَ السَّماءِ
مقاديرُ تنزلُ أنزالَها
أعوذُ بربّي منَ المُخزيا
تِ يومَ ترى النفسُ أعمالها
وخفّ الموازين بالكافرين
وزُلزلَتْ الأرضُ زلزالها(١٨)

وقد كان للفتوح الإسلامية دور كبير في إذكاء روح الشعر في الدفاع عن الدين الجديد، وتصوير لظى الحروب التي دارت بين المسلمين والمشركين أعداء الرسول "ص" والدين الإسلامي، وقد أشار كثير من الدارسين إلى "ما كان للفتوح الإسلامية من أثر في إذكاء روح الشعر عند كثير من المقاتلين، حتى تركوا تراثا ضخما من القصائد والمقطوعات، إن تكن مختلفة في مستواها الفني، فإنها ـ على أية حال ـ تشهد بأن الشعر كان ما يزال التعبير الفني المفضل، حين تثور نفوسهم، أو يواجهون من المواقف ما يحرك وجدانهم، وقد يكون كثير من هذا الشعر منحولا غير صحيح النسبة إلى قائله، أو عصره، ولكن ذلك لا ينقض هذه الحقيقة التي تتجلى في كثرة استشهاد المؤرخين، ورواة الأدب بهذا الشعر، ونسبة كثير منه إلى شعراء معروفين، وإن كانوا من المقلين، كما تتجلى في روح كثير من مقطوعات هذا الشعر، وأسلوبه ومعانيه." (١٩)

ومن الثابت أن أشعار الفتوح في عصر الخلفاء الراشدين مجهول قائلوها ـ في معظمهم ـ "وتتميز بأنها مقطوعات صغيرة، كانت استجابة عاطفية سريعة لأصحابها، ولهذا تخلو من التأنق اللفظي، وتشيع فيها البساطة والبعد عن الإغراب، ويضمن الشاعر فيها عادة معنى إسلاميا

يرتبط بفكرة الجهاد في سبيل الله".(٢٠)

ومن يتتبع حركة الفتوح الإسلامية، يجد "أن الكوفة لعبت دورا خطيرا في هذه الحركة، وأن الكوفيين قاموا بدور فعال فيها، فمنذ إنشائها وهي لا تكف عن المشاركة في حركة الفتح الإسلامي...وقد ظلت الكوفة بعد عصر عمر تقوم بهذا الدور الخطير في حركة الفتح الإسلامي، وتتردد أخبار مشاركة أهل الكوفة في هذه الحركة في المصادر التاريخية بصورة واسعة"(٢١)

وكان طبيعيا أن نجد عددا من الشعراء يصورون هذا البعث الجديد في تاريخ الجزيرة العربية وساكنيها، فراح شعر هؤلاء يسجل الفتوح، ويخلد وقائعها، ويصف البلدان الجديدة التي فتحوها، وما فيها من خير وجمال وطبيعة، "وما تفيض به نفوسهم من حنين إلى الوطن، وشوق إلى الأهل والأحباب، وما تشعر به من غربة والتياع، وما تجيش به من عواطف حزينة، عندما يشعرون بأنهم أصبحوا على هذا المعبر الضيق الذي يفصل بين شط الحياة وشط الموت، وأنهم مفارقون هذه الدنيا غرباء عن الوطن، بعداء عن الأهل والأحباب، وما يضيء فيها في تلك اللحظات الحزينة من أمل مشرق في الجنة التي وعد الله بها من يقاتلون في سبيله."(٢٢)

وعلى الرغم من ذلك، فإن أول ما يلاحظ أن "هذا الشعر لم يكن من الكثرة، بحيث يتناسب مع ذلك المدى العريض، الذي بلغته هذه الفتوح، ولا مع تلك الكثرة البالغة من الوقائع، التي خاضتها الجيوش الإسلامية، كما أنه لم يصل - من حيث الدرجة الفنية - إلى المستوى الذي كان عليه الشعر العربي في العصر الجاهلي، أو المستوى الذي وصل إليه - بعد ذلك - في العصر الأموي، أو العصر العباسي."(٢٣)

ومما يثبت ذلك أشعار للمقاتلين الذين شاركوا في فتوح خراسان في عهد عمر بن الخطاب؛ "وأول ما تشير إليه أشعار الجند المقاتلين أن الفتح تم بقيادة الأحنف بن قيس التميمي سنة ٢٢ ه - ٦٤٢ م. في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنهم غلبوا في هذا الفتح على نيسابور، ومرو الروز الأفغنية، ومرو الشاهجان، وطوس، وهرات الأفغانية، وبلخ في شمال أفغانستان، وقاتلوا الجنود الذين أعانوا يزدكرد الساساني الهارب، وفي ذلك يقول البطل ربعي بن عامر، أحد الجند الذين اشتركوا في القتال:

ونحنُ وردْنا من هراةَ مناهلا
رواءً منَ المروين إنْ كنتَ جاهلا
وبلخٌ ونيسابورُ قد شقيَتْ بنا
وطوسٌ ومروٌ قد أزرنَ القنابلا
أنَخْنا عليها كورةً بعدَ كورة
نَفُضُّهمُ حتى احتوينا المناهلا
فلله عينا مَن رأى مثلَنا معا
غداةَ أزرْنَ الخيلَ تركْن وكابلا(٢٤)

ومن أهم النماذج الشعرية التي تصور هذه الحال التي أشرنا إليها: قول "عياض بن غنم" قائد جند الكوفة في فتوح الجزيرة، عندما وجهه عمر بن الخطاب إلى الشام ليكون مددا لجيش أبي عبيدة، وهو ينظم نظما تقريريا، ويسجل الواقع، ويسرد التاريخ سردا سريعا، يقول:

مَن مبلغُ الأقوامِ أنَّ جموعَنا
حَوَتْ الجزيرةَ يومَ ذاتِ زحامِ
جَمَعُوا الجزيرةَ والغياثَ فنَفيوا
عمَّن بحمصَ غَيابةَ القُدّامِ
إنَّ الأعِزَّةَ والأكارمَ معشرٌ
فضُّوا الجزيرةَ عن فراخِ الهامِ
غلبوا الملوكَ على الجزيرةِ فانتهوا
عن غزوِ مَن يأتي بلادَ الشام(٢٥)

فالشاعر هنا يتحدث حديثا تقريريا عن الجيش، وكأنه "يسجلها في بلاغ حربي قصير، يذيعه في الناس، وهو لهذا حريص على ذكر الأماكن التي دارت فيها الوقائع، وترتيب الأجداث ترتيبا تاريخيا، لأنه حريص على أن يكون جنديا، بل قائدا، حتى في شعره"(٢٦)

ومما يلاحظ في شعر الفتوح - كذلك - أنها تعنى - أحيانا كثيرة - بالحماسة في التعبير، دون الإشارة إلى معطيات الإسلام، فلا يمكن التفرقة بينها وبين غيرها من شعر الحماسة والحروب، ولا يبدو مظهرها الإسلامي إلا من خلال ما تتعرض له من وقائع وأحداث ترتبط بالعصر الإسلامي، ومن ذلك ما يبدو في شعر بشر بن ربيعة الخثعمي في موقعة القادسية:

تذَكَّرْ هداك اللهُ وقعَ سيوفنا
بباب قديسٍ والمَكَرُّ عسيرُ
عَشِيَّةَ وَدَّ القومُ لو أنَّ بعضَهم
يُعارُ جناحَي طائرٍ فيطيرُ
إذا ما فرغْنا من قراعِ كتيبةٍ
دلفْنا لأخرى كالجبالِ تسيرُ
ترى القومَ فيها واجمينَ كأنَّهم
جمالٌ بأحمالٍ لهنَّ زفيرُ(٢٧)

وعلى الرغم من ذلك، فإننا قد نرى بعض شعراء الفتوح في هذا العصر يستندون - في شعرهم على بعض الدوافع الإسلامية؛ كما نجد في قول النابغة الجعدي (٥٠ ه - ٦٧٠) معللا خروجه

للجهاد في حروب الفُرْس، مخاطبا امرأته:

باتتْ تُذَكِّرُني بالله قاعدةً
والدَّمعُ ينهَلُّ من شأنيهما سَبَلا
يا ابنةَ عَمِّي كتابُ الله أخرَجَني
كُرْها وهل أمنعَنَّ الله ما فعلا
فإنْ رجعتُ فربُّ الناس يُرْجِعُني
وإنْ لحقتُ بربِّي فابْتَغي بَدَلا
ما كنتُ أعرجَ أو أعمى فيعذرني
أو ضارعا من ضَنًى لم يستَطِعْ حوَلا(٢٨)

وإذا كانت النساء يحاولن منع أزواجهن من الخروج إلى الجهاد، فإن الآباء - كذلك - كانوا ينتحبون لخروج أبنائهم، خصوصا إذا كانوا شيوخا بلغوا من الكبر عتيا

كما نرى عند أمية بن حرثان بن الأسكر (٢٠ هـ - ٦٤١ م) عندما هجره ابنه كلاب لمحاربة الفرس، مناشدا إياه بكتاب الله - تعالى - وما ورد به من بر الوالدين، وقد بلغ الألم والحزن بوالديه إلى حد جعل الحمائم تحزن لهما، يقول:

لَمَن شيخان قد نشدا كلابا
كتابَ الله لو قَبِلَ الكتابا
وإنَّك والتماسُ الأجر بعدي
كباغي الماء يتَّبِعُ السَّرابا
أبرَّ بعدَ ضيعةِ والدَيه
فلا وأبي كلابٌ ما أصابا
تركتَ أباك مرعشة يداه
وأُمُّك ما تسيغُ لها شرابا
إذا نعبَ الحمامُ ببطنِ وَجٍّ
على بيضاته ذَكَرا كلابا(٢٩)

ومن مشاهد الفتوح الإسلامية التي يمكن رصدها في عهد الخلفاء الراشدين، ما يمكن تسميته استرداد ما اغتصب من البلاد المفتوحة بالثورات المحلية، أو إعادة الفتح للمرة الثانية بعد استرداد السكان الأصليين ما فُتح من قبل.

ومن ذلك ما حدث بعد تولي عثمان بن عفان بسنتين في خراسان؛ حيث "قام نيزك في شمال أفغانستان بالثورة ضد العرب المسلمين، واستولى على مدينة بلخ التاريخية الأفغانية، وأرغم من بها من المسلمين العرب إلى مرو الروز الأفغانية... وقام الفرسان الشعراء بوصف ثورة أهل خراسان، ونصحوا ألا يستهان بها، وطالبوا عثمان بن عفان بالمساعدة لقمع هذه الثورة الخطيرة، وفي ذلك يقول أسيد بن المتشمس التميمي:

ألا أبلغا عثمان عنّي رسالةً
فقد لُقيَتْ عنّا خراسانُ بالغدرِ
فأَذْكِ هداك اللهُ حربا مُقيمةً
بمروي خراسانُ العريضةِ في الدَّهرِ
ولا تفترزْ عنّا فإنَّ عدُوَّنا
لآلِ كنازاء الممدِّين بالجسرِ(٣٠)

ولما تلقى عثمان هذه الرسالة أرسل إلى خراسان بمدد يفك حصار المسلمين، فاستردها المسلمون في عامين، ومن ثم انبرى أسيد بن المتشمس التميمي يصور هذا الفتح المجدد:

ألا أبلغا عثمانَ عنّي رسالةً
لقد لُقيَتْ عنّا خراسانُ ناطحا
رميناهمُ بالخيلِ من كل جانبٍ
فولَّوا سراعا واستقادوا النَّوائحا
غداةَ رأوا الخيلَ العرابَ مُغيرةً
تُقَرِّبُ منهم أُسْدهُنَّ الكوالحا
تنادَوا إلينا واستجاروا بعهدنا
وعادُوا كلابا في الدِّيارِ نوابحا(٣١)

وقد كان مقتل "عثمان بن عفان" نقطة تحول كبرى في تاريخ الدولة الإسلامية، كما كان بداية حقيقية لما يمكن تسميته بالشعر السياسي، حيث بدأ تناوش الشعراء فيما بينهم حول مقتل "عثمان"؛ وكان "حسان بن ثابت" عثمانيًّا، وكان "عثمان" يحسن إليه، وقد توعد الأنصار بعد مقتل "عثمان" في قوله:

ياليتَ شعري وليت الطَّيرَ تُخبرُني
ما كان شأنُ عليٍّ وابنِ عفّانا
لَتَسْمَعُنَّ وشيكًا في ديارهمُ
اللهُ أكبرُ يا ثاراتِ عثمانا(٣٢)

وكان الوليد بن عتبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمه، فراح يندبه حاملا على بني هاشم، قائلا:

بني هاشم إنّا وما كان بينَنا
كصدْعِ الصَّفا ما يُومضُ الدَّهرَ شاعبُه
بني هاشم كيفَ الهوادةُ بينَنا
وسيفُ ابنِ أروَى عندَكم وحرائبُه
بني هاشم رُدُّوا سلاحَ ابنِ أختكم
ولا تنهبوه لا تحلُّ مناهبُه
غدرتم به كيما تكونوا مكانَه
كما غدرتْ يوما بكسرَى مرازبُه(٣٣)

وعندما سُمِع هذا أجابه عليه الفضل بن العباس (بن عتبة) بن أبي لهب، فقال مدافعا عن بني هاشم، ومنتصرا لعلي:

فلا تَسْألُونا سَيْفَكم، إنَّ سيفَكم
أُضيعَ وألقاهُ لدَى الرَّوعِ صاحبُه
سَلُوا أهلَ مصرٍ عن سلاحِ ابنِ أختِنا
فهم سلبوه سيفَه وحرائبُه
وكان وليَّ الأمرِ بعدَ محمدٍ
عليٌّ وفي كُلِّ المواطنِ صاحبُه
عليٌّ وليُّ اللهِ أظهرَ دينَه
وأنت معَ الأشقَينَ فيما تُحاربُه
وأنت امرؤٌ من أهلِ صفواءَ نازحٌ
فمالكَ فينا من حميمٍ تُعاتبُه
وقد أنزلَ الرحمنُ أنَّك فاسقٌ
فما لك في الإسلامِ سهمٌ تُطالبُه(٣٤)

ولا يخفى على الدارس المدقق لهذه

الأبيات ـ في القطعتين ـ ملاحظة أنها تمثل فن النقائض بشروطه التامة كما تبرز بعد ذلك بوضوح عند جرير والفرزدق في العصر الأموي وأقرانهما؛ فنرى الشاعرين التزما بحرا شعريًّا واحدا ـ هو بحر الطويل ـ كما التزما قافية واحدة ورويًا واحدا ـ هو الباء بعدها هاء ساكنة، إضافة إلى التزام الشاعر الثاني الموضوع الذي أثاره الشاعر الأول، مع محاذاة المعاني التي طرحها الأول فراح يفندها واحدة بعد أخرى.

هوامش

١- ديوان الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت، (١٨٦ ـ ٢٤٦ ه) تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤، ١٩٦.

٢- السابق ص (٢٧٥)

٣- د. محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ط ٣، ١٣٨٩ ه ـ ١٩٧٠ م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان١٢٨، ١٢٩ .

٤- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر دار التراث العربي ١/ ٣٢٩،٣٣٠.

٥- الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ، ١٢٣.

٦- محمد بن الجمحي طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني ١/١٢٣:٩٧.

٧- د.عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ١١.

٨- راجع، د. أحمد عوين: مداخل الأدب العربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية ٢٠١٤، ص ١١٥ وما بعدها.

٩- ديوان الحطيئة، ١٩١، ١٩٢.

١٠- السابق، ٢٧٦.

١١- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧١ م ٣: ١٦٨.

١٢- السابق، ٣: ١٦٨.

١٣- السابق، ٨: ١١، ١٢.

١٤- د.محمد مصطفى هدارة: الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري النشأة والتطور، دار المعارف، ط١، ١٩٨١م ، ٨٦.

١٥- من ديوان الشعر العربي، ٥٦.

١٦- السابق: ٥٦،٥٨.

١٧- الإصابة في تمييز الصحابة، ، ١: ٣٤١.

١٨- الأغاني، ١٤/ ١٥.

١٩- د. عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ٥،٦.

٢٠- الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري، النشأة والتطور، ٨٦،٨٧.

٢١- د. يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، ٤٥،٤٩.

٢٢- السابق ٣٣١،٣٣٢.

٢٣- السابق ٣٣٢.

٢٤- د. محمد أمان صافي: أفغانستان والأدب العربي عبر العصور، ط ١، ١٤٠٨ ه ـ ١٩٨٨ م، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٦٩.

٢٥- تاريخ الطبري ؛ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ)، دار التراث – بيروت،الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ، ٤/ ٥٤. وتاريخ دمشق،أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ٤٧/ ٢٧٥ ومعجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)،دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م٢/ ١٣٥

٢٦- د. يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، ٣٣٥.

٢٧- الأغاني: ٢٤٣/١٥.

٢٨- ديوان النابغة الجعدي، نشر عبد العزيز رباح، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦٤ م، ١٩٤. وراجع: الشعر والشعراء، ٢٩٩/١.

٢٩- المفضليات، ١١٨.

٣٠- أفغانستان والأدب العربي عبر العصور، ١٧٠.

٣١- السابق: ١٧٠.

٣٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ، ١: ٣٥٩.

٣٣- السابق، ٢: ٣٥٦.

٣٤- السابق، ٢: ٣٥٦، ٣٥٧.